قصر غمدان

فاطمة الصافي

نشر: مجلة الإكليل، العددان الثاني والثالث، 1983.

لم يظفر قصر في التاريخ العربي بالشهرة

التي ظفر بها قصر غمدان في اليمن، ولم يحظ قصر

بمثل ما حظي به "غمدان" من حكايات وأساطير،

ولا نستغرب ذلك والامر متعلق برواة اليمن.

فغمدان من أشهر قصور اليمن في صنعاء وكان ممتدا شرقا من شرق الجامع الكبير الى حد مسجد الحميدي المعمور الان، كما يظهر من بعض وثائق الوقف القديمة، وفي الطول من الجنوب من قرب باب اليمن، الى حد مسجد الشهدين[1] ويتفق البكري وياقوت الحموي على ضم أوله واسكان ثانية "غُمْدان".[2]

---

[1]الحواشي

- القاضي حسين أحمد السياغي، معالم الآثار اليمنية 11

[2] - البكري، معجم ما استعجم 3: 102/ ياقوت الحموي، معجم البلدان 4: 210.

اتخذه مسكنا ومقرا الملك اليمني سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الاحباش، وفيه يقول أمية بن أبي الصلت:

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا

في رأس غمدان دارا منك محلالا[3]

كما ذكر ابن دريد انتصار سيف وسكنه غمدان قائلا:

وسيف استعلت به همته

حتى رمى أبعد شأو المرتمى

فجرع الاحبوش سما نافعا

واحتل من غمدان محراب الدمى[4]

وقد وصف الهمداني قصر غمدان بالقدم، إذا هو أول قصور اليمن واعجبها ذكرا وأبعدها صيتا في صنعاء.[5]

واختلف الرواة – كعادتهم في رواياتهم – عمن من بنى قصر غمدان، فروى النويري أن بانيه حام بن نوح، وزعم آخرون أن يبوراسب بناه على اسم الزهرة، وقال هشام إن الذي أسسه يعرب بن قحطان وأكمله بعده وائل بن حمير بن سبأ بن يعرب.[6] ورُوي أن مؤسسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب.[7] أما الهمداني فقد جعل بانيه سام بن نوح وسرد قصة لبنائه، فقد ارتاد سام بن نوح البلاد فوجد اليمن أطيب مسكنا، فوضع مقرانه[8] وطار بها، وتبعه سام لينظر أين وقع، فأم بها الى جبوب،[9] وطرحها على حرة غمدان، فعلم سام أنه قد أمر بالبناء هنالك فأس غمدان.[10]

وروى ياقوت أن بانيه سليمان بن داود الذي أمر الشياطين فبنوا لبلقيس ثلاثة قصور بصنعاء: غمدان وسلحين وبينون، وفيها يقول الشاعر:

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر

أو بعد بينون يبني الناس أبياتا[11]

وقد خاطب الهمداني_ مفتخرا_ أهل العراق، وقد كانوا وصفوا بغداد، فقال:

أرض تخيرها سام وأوطنها

---

[3] - المسعودي، مروج الذهب 2: 229.
[4] - التبريزي، شرح مقصورة ابن دريد 44.
[5] - الهمداني، الاكليل 8: 33.
[6] - النويري، نهاية الارب 1: 370.
[7] - الالوسي، بلوغ الارب 1: 204.
[8] - المقرانة: الخيط الذي يقدر به البناء.
[9] - الجبوب: ما ارتفع عن الأرض ودون الهضبة.
[10] - الهمداني، الاكليل 8: 34.
[11] - ياقوت الحموي، معجم البلدان 4: 210.

وأس غمدان فيها بعدما احتفرا

أم العيون فلا عين تقدمها

ولا علا حجر من قبله حجرا

لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته

ولا الشتاء يمسيها اذا اقتصرا [12]

كما قال أيضا: [13]

ما زال سام يرود الأرض مطلبا

للطيب خير بقاع الأرض يبنيها

حتى تبوأ غمدانا وشيدها

عشرين سقفا يناجي النجم عاليها

فان تكن جنة الفردوس عالية

فوق السماء فغمدان يحاديها

وان تكن فوق وجه الأرض قد خلقت

فذاك بالقرب منها أو يصاليها[14]

وروى الالوسي أيضا بانيه الملك اليمني الى شرح، فلما فرغ من بنائه قال فيه شعرا بالحميرية لم يحفظ منه الا هذا البيت:[15]

اني أنا القيل الى شرح

حصنك غمدان بمهمات[16]

ونسب الى ذي جدن الحميري شعر وصف فيه غمدان قائلا:[17]

وغمدان الذي حدثت عنه

بنوه ممسكا في رأس نيق[18]

بمنهمة وأسفله جروب

---

[12] - الهمداني، الاكليل 8: 36.

[13] - الهمداني، الاكليل 8: 46.

[14] - يصاليها: لغة يمنية فصيحة بمعنى مقابل.

[15] - الالوسي، بلوغ الارب1: 205.

[16] - حصنك: أي حصنت، وحمير تبدل تاء المتكلم بكاف، ولهجة سائدة حتى اليوم في بعض مناطق اليمن.

[17] - ابن هشام، السيرة النبوية 1: 39.

[18] - النيق: اعلي الجبل.

وحر الموحل اللثق الزليق[19]

مصابيح السليط تلوح فيه

اذا يمسي كتوماض البروق

ونخلته التي غرست اليه

يكاد البسر يهصر بالعذوق[20]

وقد جعل المسعودي "غمدان" خامس بيت من البيوت المعظمة، ونقل ما نسجه الرواة حوله من أساطير وحكايات، فعندما أراد أسعد بن يعفر_ صاحب قلعة كحلان النازل بها صاحب مخاليف اليمن في ذلك الوقت_ أراد أن يبني غمدان فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني ان لا يتعرض لشيء من ذلك، اذ كان بناؤه على يدي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر في صنع هذا العالم تأثيرا عظيما.[21] ولعل هذا ارتبط في ذهنهم بمجئ المهدي المنتظر من اليمن، أو ما تعارف اليمانيون على تسميته بالمنصور.

وتزيد الرواة في وصف وإبراز عظمته، فقيل أنه كان مربعا أركانه مبنية بالرخام الملون، وفيه سبعة سقوف طباقا، ما بين السقف والأخر خمسون ذراعا،[22] وقد انتقد الهمداني هذه الرواية والمبالغة فيها، وروى أنه عشرون سقفا على زعم بعض الروايات، وكل سقف على عشرة أذرع، وضمن ذلك شعره في غمدان قائلا:

من بعد غمدان المنيف وأهله

وهو الشفاء لقلب من يتفكر

يسمو الى كبد السماء مصعدا

عشرون سقفا سمكها لا يقصر

ومن السحاب معصب بعمامة

ومن الرخام منطق ومؤزر

متلاحكا بالقطر منه صحرة

والجزع بين صروحه والمرمر

وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك، وفي زواياه الأربع أسود نحاس أصفر خارجة صدورها، فاذا هبت الريح في أجوافها زأرت كما يزأر الأسد،[23] كما وصفها الهمداني في قوله:

---

[19] - المنهمة: موضع الرهبان، الجروب: الحجارة السودا، الموحل: خالص كل شيء. اللثيق (من اللثق) وهو اختلاط الماء فيكثر فيه الزلق.

[20] - يهصر: يميل بها، العذوق: جمع عذق وهي الكباسة.

[21] - المسعودي، مروج الذهب 2: 229.

[22] - النويري، نهاية الارب 1: 371.

[23] - الهمداني، الاكليل 8: 59.

وبكل ركن رأس نسر طائر

أو رأس ليث من نحاس يزأر

متضمنا في صدره قطارة

لحساب أجزاء النهار تقطر[24]

وفي البيت الثاني إشارة الى وجود الساعة في قصر غمدان واستعمال قدماء اليمنيين لها، وذكر الألوسي وجود غرف شهيرة في غمدان يسمونها المحاريب، وكانت محكمة البناء،[25]كما وصف الهمداني اشتماله على ينابيع الماء وتدفق مياهها، فقال:

والطير واقفة عليها وفودها

ومياهه قنواتها تتهدر

ينبوع عين لا يصرد شربها

وبرأسه من فوق ذلك منظر[26]

برخامة مبهومة فمتى ترد

أربابه مدخولة لم يعسروا[27]

وشبيه بذلك قول علقمة بن ذي جدن:

هذاك غمدان محزئلا

بناؤه العجب العجيب

أعلاء مبهمة رخام

عال وأسفله جروب[28]

ومن مبالغاتهم في وصفه ما قيل: ان ملوك اليمن كانوا اذا قعدوا في أعلى هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام.[29]

وفي غمدان وملوك اليمن يقول دعبل بن علي الخزاعي:

منازل الحي من غمدان فالنضد

فمأرب فطفار الملك فالجند

---

[24] - المصدر السابق 8: 50.
[25] - الالوسي، بلوغ الارب 1: 205.
[26] - التصريد: التبريد، المنظر: الغرفة المزخرفة في أعلى البيت.
[27] - الهمداني، الاكليل 8: 50.
[28] -المصدر السابق 8: 54.
[29] - المسعودي، مروج الذهب2: 230.

أرض التبابع والأقيال من يمن

أهل الجياد وأهل البيض والزرد[30]

وقد وصف علقمة بن ذي جدن شموخه فقال:

فذاك غمدان محزئلا

كأنه جبل منيف

يسكنه ماجد أبي

ترغم قدامه الأنوف[31]

وتفنن الشعراء في وصفه، فضمنوا الفخر أشعارهم، كما اتخذوا حاله وما آل اليه وأهله عبرة لتوالي الدهر والحدثان، فقال علقمة بن ذي جدن مفتخرا:

قد كان حسان في ذؤا بة

غمدان قريرا يعيش من رغدا

يخدمه من سراة حمير

ألفان قياما لن يعقدوا أبدا

ان سار ساروا حواليه

صفين لا يبعدون اذا بعدا [32]

وذكره أبو علكم المراني من همدان في قصيدة ذكر فيها مواضع في اليمن، فقال مفتخرا:

نحن المقاول والاملاك قد علمت

أهل المواشي بأنا أهل غمدانا

ويستمر في ذكر قصور اليمن وما شاده تبابعتها، الى قوله:

وقصر بينون علاه وشيده

ذو الفخر عمرو وسوى قصر غمدانا[33]

ودرج رواة اليمن على أن ينسبوا الشعر تبابعتهم، فنسبوا الى أسعد في غمدان قوله:

وغمدان قصر لنا شرف

---

[30] - ياقوت الحموي، معجم البلدان 4: 210.
[31] - الهمداني، الاكليل 8: 54.
[32] - المصدر السابق 8: 57.
[33] - الهمداني، الاكليل 8: 178.

مآجله حوله تزفر[34]

وكان معسكرنا دائما

أزال وعسكره عسكر[35]

واتخذ الشعراء من غمدان عبرتهم، فقال الأعشى:

وأهل غمدان جمعوا

للدهر ما يجمع الخيار[36]

فصبحتهم من الدواهي

جائحة عقبها الدمار[37]

كما ينضج شعر علقمة بن ذي جدن بالأسى في قوله:

أبعد غمدان حين أمسى

يسفي به المور والرياح

وناعط أوحشت وأقرت

فهل لذي ثروة فلاح

فكان نواحة اليمن قد وجد في غمدان ما فجر ينابيع شجوه وحسرته فقال أيضا:[38]

وتكورت غمدان من صرف الردى

من بعد مملكة وبعد تكبر

القيل من قحطان أبهم صخرها

وعمادها والقطر خير الأقطر[39]

هدم غمدان:

---

[34] - المآجل: جمع ماجل وهو كالسد، وقوله تزفر من زفر الماء: كثر واضطرب.

[35] - الهمداني، الاكليل 8: 56.

[36] - الخيار: الذهب والمال مطلقا أو ما هو أفضله.

[37] - الاعشى الكبير، الديوان 281.

[38] - الهمداني، الاكليل 8: 55.

[39] - القطر: النحاس الذائب الذي يصب للبناء.

وقيل ان "غمدان" هو البناء الذي ذكره الله في قوله "لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم"[40] فلما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله (ص) فروة بن مسيك المرادي ليهدمه، فلما أراد هدمة لم يقدر عليه حتى أحرقه بالنار، ولم يهدم الا بعد وفاة الرسول.[41] كما ورد في القول المنسوب الى ذي جدن الحميري:

فأصبح بعد جدته رمادا

وغير حسنه لهب الحريق[42]

ومما يجدر ذكره أن المفسرين في تفسيرهم الآية المذكورة لا يذكرون هذا التفسير، فقد ذكر الطبري أن البناء المقصود هو مسجد المنافقين، [43] ويتفق معه الزمخشري في هذا التفسير.[44]

ورووا عن عمر بن الخطاب قوله: "لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غمدانها"، وهذا القول هو الذي حض عثمان على هدمه". [45]

وروى ياقوت زعم كهان اليمن أن من يهدم غمدان يقتل، ولذلك علل قتل عثمان. [46]

واذا تأملنا قول ابن الخطاب تتضح لنا نظرة السلطة في شمال الجزيرة الى الثورات في جنوبها، واعتداد حمير بماضيها وما شاده ملوكها، فلا نستبعد أن يتخذوا غمدان رمزا لاعتزاز اليمانية بماضيهم ومفاخرة عدنان والنزارية به، فعملوا على هدمه، وقد لمسنا مما مر بنا من أشعار افتخار اليمانيين الكبير به وبملوكهم، وذاك الاعتزاز الكبير بمآثرهم، ولعل ما نقل عن ابن الكلبي يترجم لنا مشاعر اليمنيين نحو "غمدان" عندما روى انه كان كل ركن من أركان غمدان مكتوب "اسلم غمدان، معاديك مقتول بسيف الغدران". [47]

---

[40] - سورة "التوبة" الآية 110.
[41] - الهمداني، الاكليل 8: 63.
[42] - ابن هشام، السيرة النبوية 1: 39.
[43] - الطبري، جامع البيان في تفسير القران 11: 33.
[44] - الزمخشري، الكشاف 2: 245.
[45] - النويري، نهاية الارب 1: 371.
[46] - ياقوت الحموي، معجم البلدان 4: 211.
[47] - المصدر السابق 1: 371.

المصادر والمراجع:

1- الاعشى الكبير، ميمون بن قيس: الديوان، شرح د. محمد حسين، مكتبة الآداب بالجماميز المطبعة النموذجية (بلا تاريخ).
2- الالوسي، محمود شكري: بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب، تحقيق محمد بهجة الاثري، دار الكاتب العربي، مصر – الطبعة الثالثة(بلا تاريخ).
3- البكري، عبد الله بن عبد العزيز: معجم ما استعجم. تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر – القاهرة 1949.
4- التبريزي، الخطيب: شرح مقصورة ابن دريد، تحقيق د. فخر الدين قباوة، المكتبة العربية، حلب- الطبعة الأولى 1978.

وعندما نتمعن في الروايات حول "غمدان" منذ انشائه حتى هدمه، نجده اسطورة أو رمزا لما أنجزته اليمن، وتلك كانت نظرة الشعراء اليه، والا ما ظفر بكل تلك الاشعار، وما لهج بذكره الشعراء بين معتز ومفتخر، وبين متحسر وآسف على ماضي عريق، واكتنفته الحكايات والخرافات، فانشاؤه قررته قوة غيبية لا دخل لبانيه فيها حيث تبع الطائر فاختاره، وهدمه أيضا قررته قوة غيبية لا يستطيع الفرد ردها، ففروة بن مسيك يمني لا يمكن أن تجبره قوة على هدم بنيان اعتز به قومه الا تبعا بقوة دينية عميقة عرفت السلطة في الشمال كيف تستخدمها لتحقيق مآربها.

5- الومخشري، جاد الله محمود بن عمر: الكشاف، دار الكتاب العربي- بيروت (بلا تاريخ).
6- السياغي، القاضي حسين احمد: معالم الاثار اليمنية، مركز الدراسات والأبحاث اليمنية، صنعاء، الطبعة الأولى 1980.
7- الطبري، محمد بن جرير: جامع البيان في تفسير آي القران، المطبعة الكبرى الاميرية- بولاق، مصر، الطبعة الأولى 1329 هـ.
8- المسعودي، علي بن الحسين: مروج الذهب، تحقيق يوسف أسعد داغر، دار الاندلس، بيروت، الطبعة الأولى 1385هـ.
9- النويري، شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب: نهاية الارب في فنون الادب، دار الكتب المصرية- القاهرة –الطبعة الأولى 1949م.
10- ابن هشام، الكلبي: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الابياري، عبد الحفيظ شلبي، مطبعة مصطفى البابي الحلبي- مصر، الطبعة الثانية 1955م- 1375ه.
11- الهمداني، الحسين بن احمد: الاكيل ج 8، تحقيق محمد بن علي الاكوع، مطبعة الكاتب العربي، دمشق 1979م- 1399ه.
12- ياقوت الحموي: معجم البلدان – دار صادر- بيروت، 1957م_ 1376ه.